الجواهري بين الإسلام والماركسية

محمد حسين الاعرجي

معروف أن الجواهري من أسرة دينية عميدها يُعدُّ من أبرز فقهاء المسلمين الشيعة وهو صاحب الموسوعة الفقهية : " جواهر الكلام " ، ومعروف أيضاً أنّه نشأ نشأةً دينية اضطرّته ذات مرّة أن يصلي على جنازة لقاء أجر( ).
والإسلام الحنيف معروف، والماركسية معروفة أيضاً.
ونشأ شاعرنا .كما أراد له أبوه .مُعمَّماً يدرس العلوم الدينية.
ومن هذه البيئة التي نشأ فيها لم يكن غريباً أن يبدأ ديوانه بقصيدة " العزم وأبناؤه " ( ) وهي في شهداء ثورة العشرين التي قادها فقهاء الشيعة، وامتثل لها من امتثل إيماناً بالإسلام الحنيف، وابتعاداً عن كفر البريطانيين. وإذاً لم يكن غريباً أن يبدأ الديوان بتلك القصيدة، وأن يثنّيه بـ " رثاء شيخ الشريعة " .

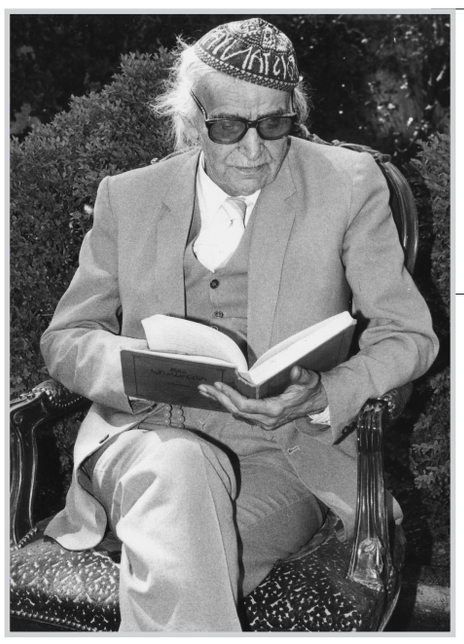

ولا أريد أن أُطيل في إثبات إسلام رجل وُلد في عائلة رعت الإسلام نفسه، ولكنني أريد أن ألاحظ أنّه لم تكن تظهر روحُه الإسلامية، والشيعية تحديداً ، إلاّ حين يُستفزّ؛ فقد استفزه كتابُ أنيس النصولي، وإساءتُه فيه إلى الإمام الحسين عليه السلام فكتب قصيدته في وزير المعارف يومئذ المرحوم السيد عبد المهدي المنتفكي .وهو والد الأستاذ الدكتور عادل عبد المهدي نائب رئيس جمهورية العراق .وكان قد ألغى عقد النصولي مع وزارته للتدريس في مدارس العراق، أقول: كتب فيه " تحية الوزير " ( ).
ومنع رئيس الوزراء العراقي يومئذ ياسين الهاشمي المواكب الحسينية فكتب قصيدته عاشوراء( ) يغمز فيها من قناة الهاشمي ولكن من مسافة بعيدة جداً ( )هي أن يزيد بن معاوية نفسه قد ندم على مقتله عليه السلام فما معنى أن يمنع طقوس إحياء ذكراه؟ يقول شاعرنا:

على أنه بالرغم من سقطاته
وقد جاءه نعي الحسين تأثّرا
فما كان إلاّ مثل قاطع كفّه بأخرى، ولما ثاب رشدٌ تحسّرا
وأحسب لولا أنَّ بُعد مسافة
زوت عنه ما لاقى الحسينُ وما جرى
...لزُحزح يومُ الطفّ عن مُستقرِّه
وغُيِّر من تاريخه فتطوّرا

وانتقل الجواهري من النجف إلى بغداد سنة ١٩٢٧، وكان قبل هذه السنة يتردد عليها بين حين وآخر كما يروي صهره على ابنته السيد صباح المندلاوي فتعرّف فيها على عاصم فليّح، وحسين الرحّال ( )، والرحال .وهو من خرّيجي ألمانيا .من أوائل الذين نقلوا الفكر الماركسي إلى العراق إن لم يكن أوّلهم.
على أن من الأمانة أن أقول إنّ قراءات شاعرنا وهو في النجف مجلات مثل المقتطف، والهلال، والعصور قد عرّفته بنظرية داروِن: النشوء والارتقاء، وبالاشتراكية( ) ولكنني لا أعلم إن كان يعني بالاشتراكية المذهب الطوباوي، أو الفابي، أو العلمي، أعني نظرية كارل ماركس، وإنكلز؛ على أن الذي يغلب على ظنّي أنّه يعني المذهب الأخير لسببين أولهما علاقته الحميمة بالرحّال، وثانيهما أنني لم أر في آثاره ولم أسمع منه شيئاً يدل على اهتمامه بالمبدع الإرلندي برنارد شو داعية الاشتراكية الفابية، وأحد المؤمنين بها، والذي من مذهبه أنّه سئل يوماً .كما هو مشهور .عن تعريف الفابية فأجاب ساخراً كعادته: كصلعتي ولحيتي، وفرةٌ في الإنتاج وسوءٌ في التوزيع.
بل أتذكر أنّه استيقظ من نومه ذات يوم من كانون الثاني (سنة١٩٨١) .وهو في شقتي يوم كنت في الجزائر .فاستل من مكتبتي مسرحية توفيق الحكيم " بجماليون " فأعجب بها كثيراً فسألته إن كان قرأ مسرحية شو: My fair leady وكيف حولها على وفق مذهبه الاشتراكيّ الفابيّ من أسطورة إلى واقع فأجاب بالنفي.
وقوّى نزوعه الاشتراكي موقف بعض فقهاء النجف من مسألة فتح مدرسة للبنات في النجف الأشرف فنظم قصيدتين هما: " علموها " و " الرجعيون " ( ) فظهر الحسُّ الطبقيّ واضحاً جدّاً في الثانية لا سيما في قوله:

فما كان هذا الدينُ لولا ادّعاؤهم
لتمتاز في أحكامه الطبقاتُ
أتُجبى ملايينٌ لفرد، وحوله
ألوفٌ عليهم حلّت الصدقاتُ؟
وأعجبُ منها أنّهم يُنكرونها
عليهم، وهم لو يُنصفون جُباةُ

ويلفت النظر هنا أنّ الماركسية هنا تقال بمصطلحات الإسلام، وسيظل هذا ديدن شاعرنا في قصائده التي تُصنّف على أنّها متأثرة بالفكر الماركسي أو أنّها تنطلق منه، يقول أبو فرات في واحدة من أشهر قصائده أعني " أخي جعفر " ( )

أتعلم أنّ رِقاب الطغاة
أثقلها الغُنمُ والمأثمُ
وأنّ بطونَ العُتاة التي
من السُّحت تهضمُ ما تهضمُ
وأنّ البغيَّ الذي يدّعي
من المجدِ ما لم تحزْ مريمُ

فالمأثم، والغنيمة، والسُّحت، ومريم العذراء من الثقافة الإسلامية، ومن مصطلحاتها.
ونجد هذه الظاهرة في قصيدة يُفترض فيها أن تكون شيوعية لا ماركسية فحسب أعني قصيدته: " سواستبول " المدينة السوفييتية التي دافعت عن نظامها الشيوعي بقيادة ستالين، فاستطاعت أن تدحر قوات ألمانيا النازية، ولكنّنا نجده يظنّ أنّها أوذيت في الله موحّداً بين الماركسية والإسلام فيقول():

لا يَنلْ منك بما
أوذيتِ فيِ اللهِ اهتضامُ
لك فيما يُنقذ العا
لَمَ رَوْحٌ وجَمامُ

ولا أُريد أن أُطيل في ضرب الشواهد، ولا يحسُن بي ذلك، إذ الظاهرة واضحةٌ لكلّ ذي عينين، ولكنّي أريد أن أقول إنه يوم عاد من بغداد إلى براغ وناكف الفريق صالح مهدي عماش بقصيدته: " رسالة مُملّحة " ( ) افتتح قصيدته بقوله:

وفّى لها نذراً فوافى
وسعى بها سبعاً وطافا

فنقل في مطلع قصيدته الكعبةَ المُشرّفةَ إلى جمهورية جيكوسلوفاكيا الشيوعية يومئذ.
والآن على ماذا يدل هذا، أعني أن تلبس الماركسيةُ .في شعر صاحبنا .عمامةً؟
وفي سبيل الإجابة عن السؤال أقول: إنّ شاعرنا كان صادقاً يوم أجاب الشاعر المصري أحمد عبد حجازي سنة ١٩٦٩ بأنه لم ينحز إلى الماركسيّين، وإنّما الماركسيون هم الذين انحازوا إليه.( ).
وأقول: إن شاعرنا لم يلفت نظره في الماركسية إلاّ شيء واحد هو " المادية التاريخية " التي تقول بأن صناعة التأريخ وليدة صراع الطبقات بدليل قوله:

ولم تزل الدُّنى من ألف ألف
يُصرِّف من أعنّتها الرَغيفُ( )

أمّا المادية الجدلية فقد اهتدى إليها بالفطرة وبأحاديث أصدقائه الشيوعيين أو الماركسيّين معه من أمثال حسين الرحّال الذي سبق أن ذكرتُه، وعبد الفتّاح إبراهيم، ومن ولديه: فرات، وفلاح، ثم أصدقائه الكرام الأساتذة: عزيز محمد، وعامر عبد الله، وفخري كريم، والدكتور رحيم عجينة، وعبد الرزاق الصافي، ومن إليهم.
وسببُ آخر أضيفه إلى كلّ ذلك هو أن شاعرنا كان ثورياً ناقما على الاستعمار أكثر من كونه ماركسياً، ولكنّ الماركسيّين وجدوا فيه وفي موهبته ما يعزّز مواقفهم؛ فتبنّوه ونعمَ ما فعلوا.

التأبين الأربعيني الأول للشاعر بدر شاكر السياب

جاسم العايف

في بداية الشهر الرابع عام ١٩٦٤ مَثلنا أمام المجلس العرفي العسكري الأول، الذي عُقدتْ جلساته بمقر"القاعدة البحرية" في البصرة ، وبعد أن أدخلونا في قفص الاتهام ، اتهمنا المدعي العام العسكري عن ممارستنا لـ "نشاط شعوبي - هدام" خلال أعوام ١٩٦٠-١٩٦٢ ، ودون أدلة، كنا أعوام"الاتهامات" طلابا في المرحلة المتوسطة. خلال دقائق أنزلت بنا عقوبة السجن لمدد مختلفة . مساءً حُشرنا في عربات حمل "القطار الصاعد إلى بغداد" ثم أنزلونا صباحا ، مقيدين، في مدينة "الحلة" وألقوا بنا في سجنها . يقوم عادة السجناء السياسيون بتنظيم حياتهم اليومية و تختفي في السجن الأوضاع الاجتماعية الخاصة، إلى حد ما. ولمواجهة أيام السجن البائسة ولياليه الموحشة ، و لاستمرار العيش فيه بطريقة منظمة، ينعكس مستوى الدرجات الحزبية في الخارج على الحياة داخله من ناحية المهمات وممارسة المسؤوليات فيه، إذ ثمة لجنة قيادية – سياسية عليا، تتفرع عنها لجان أدنى تعمل على تسيير شؤون الحياة اليومية في الداخل ، من خلال اللجان الفرعية،أهمها: لجنة العلاقات العامة المختصة بالتعامل مع إدارة السجن والجهات الرسمية الأخرى، ولجنة الاحتفالات بالمناسبات الحزبية والوطنية والأممية ، ما أكثرها في ذلك الوقت!!، ولجان للطبخ و للصحة والخدمات والرياضة، واللجنة الثقافية بشقيها السياسي والأدبي - الفني.
صحف السلطة تصلنا يوميا، أما الصحف السرية ووثائق التثقيف الحزبي فتصل بين حين وآخر، عبر شبكة سرية تعتمد العوائل خلال المواجهات التي كانت في بداية كل شهر ومنتصفه، وكذلك بمعونة بعض السجانين المتعاطفين، أو ممن لديهم أخوة وأبناء وأقارب داخل السجن. الكتب بأنواعها تصل عن طريق المتعهد الذي يرسل في كل أسبوع او اقل عربة تضمّ عشرات الكتب والمجلات الحديثة من إصدارات دور النشر اللبنانية والمصرية. في أواسط عام ١٩٦٤ بدأت الصحف تكتب عن الحالة الصحية المزرية والمرض الفتاك الذي ألم بالشاعر "بدر شاكر السياب" ، نحن المهتمين بالأدب والفن والثقافة شُغلنا بذلك ، ومع قلة عددنا إلا أننا كنا معروفين بين السجناء بنشاطنا الثقافي - الأدبي- الفني، ومن الأسماء المعروفة في سجن(القلعة القديمة)، التي تسمى بين السجناء: (القلعة الخامسة) لسبب أجهله حتى اللحظة، الشاعر فاضل العزاوي والشاعر حسين الرفاعي والكاتب والقاص خليل المياح ، والصحفي عمران رشيد عمران، والفنان إبراهيم دراج، والشاعر الشعبي المبدع المرحوم مجيد الخيون وآخرون. وفي السجن ذاته، ثمة (القلعة الجديدة) وهي بناية حديثة البناء و مفصولة بجدار عازل عال، عن شقيقتها(القلعة القديمة/ الخامسة). وفي (القلعة الجديدة) ثمة بعض مَنْ يهتم بالنشاط الثقافي والفني والأدبي وفي مقدمتهم أستاذي- في مرحلة الدراسة المتوسطة، الدكتور لاحقا، المرحوم هاشم الطعان، والفنان التشكيلي هادي الصكر والصحفي والمترجم حسين فوزي الجاسم، وتعود معرفتي بهما لأيام موقف مركز شرطة منطقة البصرة القديمة عام ١٩٦٢ ، والمخرج المسرحي قاسم الشبلي،وآخرون لا تسعفني الذاكرة الآن على تذكرهم . لقد كتب الشاعر فاضل العزاوي روايته (القلعة الخامسة) مستوحيا أحداثها من الحياة اليومية في (القلعة القديمة/الخامسة) وخارجها ، كما أفرد لها فصلاً مطولا في كتابه (الروح الحية). بعد وفاة بدر شاكر السياب في ٢٤ /١٢ / ١٩٦٤، و في أوائل عام ١٩٦٥ كنت مع الشاعر فاضل العزاوي، نتجاذب أطراف الحديث همسا، في وقتٍ متأخر من الليل، وكنا عادة نقرأ ليلاً وربما حتى الصباح ، والاستغراق في النوم لما بعد الظهر، قلت له: لماذا لا نقيم أمسية خاصة ببدر شاكر السياب بعد وفاته؟!. وظل موضوع أمسية بدر مثار حوار متواصل بين فاضل العزاوي و خليل المياح وبيني، بحكم العلاقة الوطيدة بيننا والاهتمامات التي نشترك فيها ، وكنا على دراية تامة بسلوك بدر وعلاقته المعقدة جداً بالطيف السياسي ،الشيوعي تحديدا، الموجود في السجن، وتقاطعه التام معه والذي وصل حد العداء، لا بل الاستعداء المشترك بينهما، لقد سعينا ثلاثتنا، إلى الارتفاع عن الصغائر والخلافات الضيقة ، وفضلنا عدم التعامل مع شخص بدر شاكر السياب شخصياً والذي خضع نهائياً لسلطة الغياب المادي المتمثل بالموت، وسيبقى بدر شاكر السياب الشاعر أرثاً ثقافياً كبيراً في خارطة الموروث الثقافي العراقي والعربي وحتى العالمي . كانت فكرة الأمسية في ذلك المكان والزمان، تعبر عن تحدٍ لنمط من السلوك السياسي، كان سائداً حينها، و يضع المثقفين في خانة ((الخوارج)) والتذبذب والتهميش وحتى الاندحار وحاولنا استحصال موافقة قيادة التنظيم السياسي العليا في السجن حول هذه الأمسية، لما لموضوع بدر وتحولاته السياسية ، من حساسية ستؤثر جدا في الرأي العام داخل السجن . وحصلت موافقة لجنة التنظيم السياسي العليا على إقامة هذه الأمسية، بعد جهود بذلها أساسا العزاوي ، وكانت مشروطة بأن لا تُكرس تلك الأمسية لـ (بدر) فقط وان تكون مفتوحة ، ولا مانع من تخصيص محور خاص فيها لبدر الشاعر. تلك الموافقة ،مع شرطها، كانت بادرة طيبة كشفت عن جذور كامنة مهيأة للنمو في وجدان العراقيين وأعماقهم ، وعلى مختلف مستوياتهم ومراكزهم وتوجهاتهم السياسية، لما يسمى حاليا بـ (ثقافة التسامح السياسي والتعدد وحرية الرأي والشفافية والانفتاح) . وأقيمت الأمسية ،ربما، بالتزامن مع الذكرى الأربعينية لوفاة الشاعر بدر شاكر السياب، تحدث فيها أولا الشاعر فاضل العزاوي عن مواضيع ثقافية وفنية عدة، وعرج علي بدر ، وأذكر أنه أبدى رأياً متحفظا جدا حول ثقافة بدر العربية ، وقدراته باللغة الانكليزية ، مع تخصصه الأكاديمي فيها ، مدللا على ذلك بتراجمه عنها والتي وصفها بـ"الضعيفة" ، كما تحفظ حول قدراته الشعرية أيضاً، وأسهم في الأمسية شعراء بالفصحى واللهجة الشعبية وقصاصون وكتاب كنت بينهم ، إذ قدمت موضوعا عن بدر تطرقت فيه إلى غربته وموته بعيدا عن وطنه وأسرته. بعد ذلك قمنا بتهريب المواد الثقافية الخاصة بمحور الشاعر بدر شاكر السياب إلى صفحة (المنار الثقافي) و كانت تصدر أسبوعيا ضمن صحيفة (المنار) اليومية التي تصدر في بغداد ويرأس تحريرها الصحفي عبد العزيز بركات - مجهول المصير حال مجيء البعثيين في انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨- ولم نذكر أنها أرسلت من سجن الحلة ، وقد نشرت تلك المواد وبأسمائنا ، دون ان نشير إلى مناسبة كتابتها ، والتي اعتبرناها بمثابة (التأبين الأربعيني الأول) للشاعر بدر شاكر السياب، الذي أقمناه داخل اسوار سجن الحلة المركزي وفي (القلعة الخامسة) تحديداً.

لو امتدحوك فهذا يعني أنك على خطأ !

يوسف أبو الفوز

هل تأتي كلماتي هذه متأخرة لارسال تحية تضامن ومحبة للصديق والزميل الكاتب المبدع عبد المنعم الاعسم ؟ لا اعتقد ذلك ، فهي ايضا يمكن ان تكون موجهة لكل مثقف عراقي مبدع ومتنور ، يقارع بكلماته ظلام الافكار التي تريد من العراق ان يبقى رقما خارج معادلة الحضارة والتطور ، ويجد نفسه في مواجهة ضباع لا تعرف للحوار من اصول سوى محاولة التشويش والافتراء والاساءة ، وبعد ان تستنفد هذا يكون الاسهل عندها التهديد ، فأن لم ينجح ذلك فكاتم الصوت هو الحل ! فعلوا ذلك مع الشهيد كامل شياع والشهيد قاسم عبد الامير عجام ، وقد يريدون ان يكون الكاتب عبد المنعم الاعسم .أو غيره .هو التالي! لن يختلف أحرار ومتنورو الفكر في العراق في تقييمهم الايجابي لما يقدمه الكاتب عبد المنعم الاعسم بنشاطه الفكري الدائب للعراق الجديد ، فهو الذي عرفته سجون الأنظمة القمعية فتيا باسلا، يواصل نضاله الفكري بمبضع قلمه يشرّح واقعنا السياسي بكل جرأة ، وبكل حيوية فكره النير، غير آبه للضباع التي تلغ بدماء الشعب ، وترى في الكلمة الحرة نورا يفضح ظلاميتها !
الكاتب عبد المنعم الاعسم ، وهو يواصل نضاله الفكري ، يعرف ان ثمن الكلمة الحرة ليس هينا في عراق ما بعد الاحتلال تتسيد الساحة السياسية فيه قوى لها اجندة تخلط الدين والطائفة بالسياسة ، واود ان ادعوه هنا للشعور بالفخر لأن نشاطه جعل اعداء النور يدفعون بكلابهم لتنبح أقمار قافلة كلماته ، فراحوا يحاولون تشويه سيرته وتصريحاته بافتراءات رخيصة. ابا الحارث ، هل انت بحاجة لتذكيرك بصرخة كارل ماركس الى أوغست بيبل ؟! فلو امتدحوك فهذا يعني انك على خطأ ! انك على حق يا صديقي ما دام ان كلماتك أغاظت أعداء النور! ان الدولة هنا ومؤسساتها مطالبة بحماية حرية الفكر والتعبير، وحياة الكتاب والفنانين وعامة المثقفين ، وان تنظر بعين الجد لتلك الكتابات التحريضية الرخيصة ، التي تتجاوز اهدافها تشويه سمعة كاتب أو مثقف ، بل تضع نفسها موضع التنبيه والايعاز لجماعات مضللة وظلامية لإنهاء حياة هذا المثقف أو ذاك ، ومن هنا تأتي خطورة فوضى النشر بدون ضوابط في عراق ما بعد سقوط الديكتاتورية الصدامية .

مجلة " شيراز" نافذة عربية على الأدب الإيراني

بشار عليوي

قليلةٌ جداً هي المطبوعات الصادرة في إيران باللغة العربية التي تُسلط الضوء على الواقع الثقافي الإيراني . لذا حرصَ (مركز شيراز للفكر والفن الإسلامي) في طهران ، على إصدار مطبوع فصلي يهتم بالأدب الإيراني وموجه للناطقين بالعربية فكانت " شيراز " . وهي مجلة فصلية تصدر في مدينة طهران وتُعنى بالتواصل الإيراني العربي وقد صدر حديثاً العدد (١١) ربيع ٢٠٠٩ من هذه المجلة ، حيث جاء هذا العدد حافلاً بالعديد مَن الدراسات والمقالات والنصوص المترجمة من الفارسية للعربية . في البدء نُطالع مقطع من قصيدة " النافذة " للشاعر الإيراني (شمس تبريز) ..

كتبَ الخطاط ثلاثا ..
خط يقرأهُ هو ، ولا يقرأهُ غيره ..
خط يقرأهُ هوَ ، ويقرأهُ غيره ..
خط لا يقرأهُ هو ، ولا غيرهُ ..
وهذه حالي أنا ..
فكلامي لا أفهمهُ أنا ، ولا يفهمهُ غيري .

وفي محور " دراسات " ، نُطالع دراسة بعنوان (شعر الثورة والمقاومة في إيران) للباحث د. محمد رضا روزبه ، ترجمة حيدر نجف ، وهذه الدراسة تحدد مفهوم شعر الثورة بكونه النتاج الشعري لفترة ماقبل قيام الثورة ، أما مفهوم شعر المقاومة فيتحدد بالمُنجز الشعري خلال سنوات الحرب بين العراق وإيران . وفي هذا السياق تكشف الدراسة عن توجهات كلا المفهومين بقول الكاتب (حيث أن الثورة الإسلامية حملت هوية شرقية ـــ إيرانية ـــ دينية ودعت الى التقاليد الدينية والاجتماعية والثقافية المحلية ، فإن العودة للتقاليد الأدبية كانت بدورها مما أولاهُ الشعراء اهتماما بالغاً ، ومن هذا المنطلق فإننا نشهدُ في السنوات الأولى للثورة وفوراً في القصائد التقليدية الى جانب القصائد الحديثة) . ونقرأ أيضاً في المحور ذاته دراسة تعنونت بـ (سمعتُ صوتاً هاتفاً في السحر) وهي عن الأديب الفارسي الخالد " عمر الخيام " صاحب الرباعيات المشهورة ، يقلم الباحث والشاعر الإيراني " موسى بيدج " ، وتُسلط هذه الدراسة الضوء على سيرة ومُنجز الخيام حيثُ جاء فيها (الخيام هو أحد الكواكب المُتألقة في تأريخ الثقافة الإسلامية في إيران . فهوَ يُمثل الروح الإيرانية المتعطشة الى المعرفة والكشف والتعمق والغور في الشك من أجل الوصَول الى اليقين الذي يحتاجهُ الإنسان للحصول على نفس مُطمئنة تُساعدهُ في سبر أغوار الحياة الدُنيا) . وفي محور / لقاء العدد / نُطالع حواراً مع الشاعر الإيراني " أحمد رضا أحمدي " أجرتهُ الشاعرة " آزاده ميرشكاك " ، والشاعر أحمد رضا أحمدي من مواليد مدينة كرمان عام ١٩٤٠ وكان مُنجزهُ الشعري انطلاقة لأحد التياراتِ المُهمة في الشعر الإيراني الحُر " النيمائي " أطلقَ عليه عنوان " الموجة الجديدة " وكانت السمة البنيوية البارزة لهذا التيار الشعري ولهُ حيث يميل نحو النثر وتحررهُ من كُل أشكال الوزن والموسيقى الشعرية . أما محور / نصوص / فقد ضَمْ باقة مُختارة من الأدب الفارسي . حيث نُقرأ باقة من قصائد الشاعر " محمد علي بهمني " هي (ساعة / صوتك / عبث / حلمٌ فرٌ من النوم / لا يوجد أحد في الدار / الجدار) ، ونُطالع أيضاً مجموعة قصائد للشاعر " د. محمود إكرامي " هي (جمالُك بلا حدود / غداً وشمس أخرى / تفاحة مُبتسَمة / أسمك حلاوة فمي / النهار كم سنة) وجميع هذه النصوص قام ترجمتها من الفارسية الى العَربية " موسى بيدج " ، كما نشرت المجلة حِواراً مُطولاً مع الأكاديمي د. سمير أرشدي أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بجامعة الكويت ، عن الشاعرة الإيرانية " بروين اعتصامي " . وفي محور / قصص / نقرأ قصة بعنوان (الأرض الزرقاء) للقاص " محمد رضا كاتب " ترجمة حيدر نجف . وقصة حملت عنوان (المشروع الثاني) للقاص " محمد علي كودبني " ترجمة جمال كاظم . أما محور / حقيبة ثقافية / فقد تضمن مُتابعة لجمال كاظم من بغداد ، حملت عنوان (شارع المُتنبي ينهض من جديد) . جديرٌ بالذكر أن هيأة تحرير مجلة شيراز تضم كلاً من (حسن بنيانيان ـــ مُشرفاً عاماً / الشاعر موسى بيدج ـــ رئيساً للتحرير / باسم الرسام ـــ مُديراً فنياً / جمال كاظم ، حيدر نجف ، د. سمير أرشدي ، صادق خورشا ـــ أعضاءاً) وللمجلة أيضاً ، موقعاً ألكترونياً على شبكة الأنترنيت بالرابط التالي .www shirazmag.com

تلويحة المدى

ثقافة عراقية أم أفرادٌ مثقفون؟

شاكر لعيبي

يمكن أن يُطرَح السؤال عينه بصيغة أخرى: ثقافة عربية أم أشخاصٌ مثقفون؟. سنطل نبحث في الحالة العراقية بسبب زعمنا أننا نعْرِفُ تفاصيل محدّدة في سياق تطوّر البلد منذ نهاية القَرن التاسع عشر وتأسيس الدولة العراقية الحديثة. لنقلْ في البدء إن المفردة (ثقافة) مشحونة عموماً في لاوعينا بمعنى عالٍ ومشرق. لذا يتوجّب اقتراح تعريف لمفهوم الثقافة لكي نرى فيما إذا توجد ثقافة في سياق تلك الدالة الإيجابية للمفردة أم يوجد، في الحقيقة، مثقفون أفرادٌ لا يؤسسون بالضرورة لحالة ثقافية عالية عامّة. حسب التعريف الذي تقدّمه منظمة اليونسكو فإنّ الثقافة بمعناها العريض تُعتبر: "مجموع السمات المتميّزة، روحياً ومادياً وفكرياً وعاطفياً التي تسمُ بميسمها مجتمعاً أو فئة اجتماعية. سوى الفنون والآداب تنطوي الثقافة على نمط الحياة والقوانين الأساسية للكائن البشري وأنظمة القيم والتقاليد والمعتقدات". ويتنبه تعريف اليونسكو إلى أن ما نسميه (المجموع) يشير بداهةً في (نظرية المجموع) إلى تشكيلة الحاجيات المسمّاة بالعناصر.
وبعبارة أخرى فإن هذا التحديد للثقافة الذي يَعتبر الآداب والفنون مجرّد عنصرين من بين عناصر تأسيسية كثيرة أخرى لها، يدفع للتأمل فيها على اعتبارها في المقام الأول نمطاً للعيش وأنساقاً للقيم والتقاليد والمعتقدات. وهذه كلها تشتغل صُراحاً على نطاق عريض في جُلّ مفاصل الحياة الاجتماعية وغيرها، بينما لا تشتغل الآداب والفنون إلا في نطاق النخب الضيقة.
على المستوى العراقي لن يختلف اثنان، كما نأمل، على أن أنساق الحياة والمعتقدات والقيم ما زالت تنهل الكثير من مصادر عفا عليها الزمن: القبيلة على سبيل المثال الواضح، وقيمها الروحية وسبل تدخلاتها القوي في الحياة الشخصية والقانونية للأفراد. يقدِّم الشعر الشعبي العراقي، المنتشر والمحبوب، أمثلة ونماذج جديدة بارزة، لجهة استناده الى معايير الماضي تعبيراً ومفاهيمَ. هذه المعايير هي الاسم الآخر للثقافة العراقية ضمن تحديد اليونسكو أعلاه للثقافة في الأقل. لا تبرز هذه المعايير بوضوح كاف في بعض الممارسات الثقافية رغم أنها تتدخل أحياناً كثيرة حتى في عمل النخب المُنتجَة للآداب والفنون عالية المستوى، بصيغ معقدة ومقنّعة.
على المستوى التاريخي اصطدمت النُخبُ الأدبية نفسها مع (الثقافة العراقية)، وأحدث ارتطامها دويّاً هائلاً. فلم يكن الجواهري سوى شاعر متمرّد بارز على (ثقافة) مدينته النجف عانى ما عانى منها. كما أن النقد والتجريح والسخرية التي تعرَّض لها معظم رواد الشعر الحديث في العراق، بدءاً من روفائيل بطي، ليس سوى تمظهر من تمظهرات اصطدام (الثقافة) العراقية بالتجديد الشعري الذي حاولته، بجرأة، النخب المتعلّمة والمتنوِّرة. ويمكن وضع الإعجاب الجماهيري الذي حازه برنامجٌ شهير للغوي مصطفى جواد في نطاق الطرفة التي تستمتع بها (الثقافة) أكثر مما إلى المعرفة الحق بمنجزات (مثقف) من أبنائها. هذه محض أمثلة لا يسَعُ المقام بإيراد المزيد منها. وقد يكون تاريخ (الثقافة) الحديث برمته في البلد شاهداً على الفرضية. من نافلة القول التذكير أن (الثقافة) العراقية لا تستمدّ نسغها الراهن، إلا على نحو صعبٍ، من تاريخ الحضارات الرافدينية.
بين التجمّعات والجمعيات والصالونات الأدبية المتنوّرة التي طلعت في بغداد والنجف والموصل والبصرة وبين (ثقافة) الشرائح العريضة كانت توجد أشواط بعيدة. من البداهة أن نتذكر أن البلد شهد صعود أسماء كبيرة، فلنطلق عليها الآن اسم (المثقفين)، في كل حقل: الحبوبي، الكرملي، الرصافي، الزهاوي، كوركيس عواد، يعقوب سركيس، طه باقر، أحمد سوسة، عبد الجبار عبد الله، بدر شاكر السياب، عائلة الملائكة، عزيز علي، مير بصري، محمد بهجت الأثري، محمد شكري الآلوسي، جلال الحنفي، جواد سليم، محمد مكية، شاكر حسن السعيد، مجيد خدوري، سليم طه التكريتي، علي الوردي، شاكر مصطفى سليم، فيصل السامر،.... إلخ. في يومنا الحالي أيضا ثمة جمهرة من المثقفين البارعين في كل حقل، لكن من البداهة نفسها أن يكون هؤلاء (المثقفون) على مسافة معتبرة مع (ثقافة) الشرائح الموصوفة، وكان بعضهم مرفوضا أو غير مفهوم، ومنهم من لم يُقبَل ثقافياً إلا بعد وقت طويل، والبعض الآخر لن يُقبل أو يكرّم إلا بعد وقت آخر، الأمر الذي يسمح بالحديث بالأحرى عن "مثقفين عراقيين" كبار أكثر من الكلام عن (الثقافة العراقية) بالصفة الممنوحة للكثير من سمات المجتمع العراقي الروحية والمادية والفكرية والعاطفية المتنازَع على طبيعتها العميقة.
في اللحظة الراهنة، فإن جميع أشكال الفساد والرشوة والاقتتال والخصومات السياسية والأدبية والألقاب والكثير من الشعائر والمفردات المستخدمة يومياً والتقاليد الأدبية وأساليب السجال والتقسيمات العشرية للأجيال وتزوير الوثائق الجامعية والنميمة والغيرة والنزعة الإبكائية في الغناء وتدمير الممتلكات العامة وسرقة النفط ولهجة بعض الفضائيات والنزوع العاطفي المتطرف سلبا أو إيجاباً..... إلخ- وهذه كلها إرث له امتدادات ثقافية في مكان ما من الذاكرة الاجتماعية وليس وليد اللحظة فقط كما يُقال لنا عادة- تعزز من وجود ثقافة عراقية ذات سمات روحية ومادية وفكرية وعاطفية، بالمعنى الممنوح لمفردة الثقافة.
لا ننسى الوجه المشرق من المسألة لأننا جميعاً نعرفه وننهل أيضا منه، فليست الصورة بالعتمة التي قد نتصوّرها، فمن الثقافة العراقية أيضا القدرة الروحية على تحمل الكوارث وكرم الروح وسخاء اليد وإنتاج الشعر العميق والشدو بألحان تمس شغاف الروح والحذاقة والأريحية والإلماحية ومواصلة صعود الجبل مثل سيزيف وتحويل الألم إلى أثر إبداعي والتجارة والاستمتاع بالطبيعة ومتابعة المنهج الديكارتي على نحو عفويّ وخصال التعايش والجيرة والحيرة والوضوح وعدم الرضوخ للحاكم المستبد، ومليون فضيلة أخرى. مما لا شك فيه وجود واحات كبيرة مضيئة في الجسد الاجتماعي للثقافة العراقية لم تكفّ عن التعبير عن نفسها في المائة سنة الماضية، رغم الانقطاعات في تطور المجتمع وسيادة الاستبداد والعسكرة والتخريب المنهجيّ. واحاتٌ ومنابع رفيعة لم تستطع بعد تشكيل ثقافة بالمعنى المقصود واللاواعي المأمول عادة من الكلمة. ما أصعب قبول هذا الاستنتاج لو كان صحيحاً!.